

القيم . . .

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من ذا الذي يستطيع أن يرُدَّ على الناس إيمانهم « بالقيم » العظيمة التي تمر الوجود؛ وكانت تمر القلوب إلى ما قبل هذا العصر المادي ، عصر زوال الحدود وكثير من الفروق القديمة بين الأشياء والأمور ؟ إنها رسالة المخلصين للحياة لرد الإيمان بالحياة نفسها إلى قلوب أوشكت أن تفقد إحساسها بالحياة ...

إن الكون العظيم قائم على نسب ثابتة ، وحدود واضحة بين الجمال والقبح ، والصحة والفساد ، والنظام والفوضى ، وكانت عقول الناس وطباعهم متأثرة بما في طبيعة الكون من هذه النسب والحدود . لا تحاول طمسها بفلسفتها ، ولا تغييرها بمقدرتها العلمية ؛ لأن الكون المادي ظل في قوالبه القديمة وحدوده الجامدة ، لا يستطيع الناس الخلط بينها إلى أن أتى هذا العصر الذي زالت فيه كثير من الحدود والمسافات بين الأشياء والأمكنة فزالت الحدود كذلك بين الخير والشر والجمال والقبح أو خيّل للناس أنها زالت ، واتسع مدى الخلط والتأويل ، لأن رجال الأخلاق لم يسأروا المطلق العصري فيجعلوا الحكم النفسى على « قيم » الأمور متمشياً مع الفهم العلمى الجديد لها ، وهذا كله نتيجة لتخلف الروح تخلفاً بعيداً عن سير الحياة المادية وقد صار الناس لا يتذوقون الأشياء المادية تذوقاً روحياً يضفى عليها ظلال التأويل ، ويخلع عليها لونا من حياة القلوب نفسها فيخرجها في حالة روحية وطاقية نفسية .

خذ أمثلة : الانتقال السريع بالطيران ، والاتصال الخاطف باللاسلكى ، والمقدرة الساحقة بالكهرباء والفولاذ والقوى الذرية .. إنها أعمال واقمية الآن ، وكانت إلى ما قبيل الربع الأول من هذا القرن أحلاماً إنسانية خالصة لا تقترب من خيال الناس إلا حيث يدور حديث الآلهة والكائنات القادرة التي تتصل بالآلهة ... والتي لا سدود ولا قيود في عالمها

فإنما يعاب وصف الناقة على المحاكاة كما تعاب المحاكاة في وصف الطيارة من أحدث طراز ، وكما تعاب المحاكاة في وصف القنبلة الذرية ، وكل مخترع يأتي بمد القنبلة الذرية ، ولو أتى بعدها بمئة قرون

والجبال أقدم من الناقة ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والبحار أقدم من الجبال ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والكواكب والشموس أقدم من الجبال ومن البحار ومن الأرض نفسها ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟

والمعجب أن تخفى هذه الحقيقة البينة على أحد ممن يفقهون الشعر أو لا يفقهونه ، فكيف خفيت على أولئك النقاد ؟

ما نخالها خفيت عليهم إلا لأنهم حسبوا أن الناقة « أداة مواصلات » ، ووصفها الشعراء الأقدمون لأنها أداة مواصلات . فلا يحسن بالشعراء المحدثين أن يتركوا أدوات مواصلاتهم ليصفوا النوق في الصحراء

والناقة ليست بأداة مواصلات وكفى ، إلا إذا كان راكبها جتالاً وكفى

ولكنها حيوان وراكبها إنسان ، وشأن الحيوان والإنسان باق في الشعر وفي الإحساس والتعبير عن الإحساس إلى آخر الزمان وهي بهذه الشابة أحدث من طيارة اليوم وطيارة القرن الثلاثين وما بعد القرن الثلاثين

وكذلك الصحراء وأهل الصحراء ، وكذلك كل بقعة من بقاع الأرض وكل مطلع من مطالع السماء

فالشاعر الذي تروعه الصحراء ولا ينظم فيها أعرق في المحاكاة والتقليد من الشعراء المتقدمين ، والأديب الذي يحسب أن الطيارة قد نسخت الناقة والجواد وسائر المطايا الحية لا يحس الحياة ولا الأحياء

وهذه تعقيبات تقال ، ولا بد أن تقال وتماد على تلك الآراء الخاطفة التي تروج بين خطاب الآراء والمذاهب في هذه الآونة ، ولكنها ليست بالتعقيبات الخاطفة كما يرى القراء

هباسي محمود العقاد

والآن بعد ان صارت هذه الأعمال من أعمال الانسان ابن المعجز القديم ، صار يفعلها وهو في ذهول عن « قيمة » ما يفعل ، كأنها لم تكن يوماً ما أحلاماً عن عالم الآلهة ! وإني أعتقد أن أزمت الحياة الآن ناشئة عن هذا الذهول الشنيع الناشئ من إهمال الواظ والأخلاقين والمرين أن يجملوا هذه القدرة الانسانية الأخيرة مجالاً عظيماً من مجالات الرعظ والارشاد لإيقاظ الإنسان أولاً إلى « قيمة » ما يفعله الآن .

ونحن إذاً أفلحنا في أن نجعل الفرد الإنساني يتذوق هذه الأعمال المادية اليومية التي يفعلها تذوقاً روحياً يجعله يتلفت بالفكر والقلب إلى قيمتها ، نفلح لاشك في أن نعود به إلى رؤية « القيم » العظيمة الخالدة التي تتمر الوجود ، وكانت تتمر القلوب أيام المعجز قبل التسلط المادي الأخير .

ويدهي أن الطفل الناشئ في هذا العصر بين القطارات والطائرات والبرقيات وعالم الكهرباء ينشأ وهو يرى هذه الأشياء كأنها أشياء طبيعية لا تسترعى انتباهه ، ولا تثير اهتمامه ، لأنه ألفها منذ نشأته ؛ فيمر عليها مخدراً بالألفة ، ولا يعرف لها قيمة تجعله يلتفت إلى « الإنسانية » التفاتة خاصة يدرك بها تفردا وامتيازها .

ومن هنا ينشأ الذهول عن « القيم » الثابتة التي في الوجود ؛ كالحق ، والخير ، والجمال ، والروءة ، والإيمان ، وغير أولئك من معايير الحياة القديمة التي كانت تسجد على أقدامها قلوب الناس أيام المعجز .

وما أدري: لعل هذا الكائن الإنساني سيأتي عليه عصر يشرفه بقدرة فائقة ، ولعله حينئذ يستحي كما يستحي الخلائق العقلاء الكاملون أن يمتدوا على « قيم » الحق والخير . لأن حياة الإنسان القادر لا تستقيم ولا تستمر إن لم يقمها على الحق والخير ، والحق والخير هما أساس هذا الوجود الذي نعيش فيه ، ولا يعمى عنهما وعن أخواتهما كائن يخلف الله في الأرض تلك الخلافة الواسعة والحياة الفردية والحياة الاجتماعية قد آثر فيهما فقد « القيم »

الآن تأثيراً خطيراً هو الذي يجعلهما على قن واضطراب وتقطع أمر . فليست ترى الفرد الذي يستحي من نفسه إذا فعل القبيح أو الضار حينما يخلو بتلك النفس اللوامة ؛ لأنه صار يرى الأعمال بدون « قيمها » ، وصارت الفلسفات الأبيقورية واليكيافلية

تجهد له وتبرر عمله ، وتسفه بالأعدار الكاذبة الخادعة ، فلا يسمع لضميره صوتاً ينكر عليه ، لأنه فقد الحساسية بالقيمة الخلقية للأعمال ، وأسففته الحريات التي صارت شعار العصر ، واختلطت فيها حرية الفكر والرأى بحرية الطباع ، وحرية الطباع معناها الانطلاق وراء البدوات والنزوات ، والبدوات والنزوات هي امتداد حياة الطفولة التي لا تدرك « قيم » الأشياء ، وامتداد طيشها الذي لا يحسب حساب عواقب الأعمال والأقوال .

ولست ترى كذلك الآن الدولة التي تحترم العهد والكلمة والشرف لأن فقد « القيم » قد انتقل إلى المجال الدولي كذلك كنتيجة طبيعية للحياة الفردية الحالية. وهي حالة بالغة الخطورة إن لم يتداركها المربون والمفكرون بالسمى التواصل لرد « القيم » إلى مكانها من القلوب والأشياء ، وخلع القداسة على كل حرمان الحياة ، وإحاطة النظم والقوانين والمعائد السامية بهالة من الاحترام والاعتبار ؛ حتى نجد من الفجور الذي يصحب القدرة المادية الفائقة ، وتكفكف من غلواء الفرور الذي تبسه السيطرة على القوى . ذلك الفرور الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية توشك أن تنكر لرسالتها الإنسانية ، وتتفل عن تاريخ أبطالها العالمين حين اهدت إلى سر القبلة الذرية الذي جعل لها المقام الأول في التسليح والقدرة على البطش . فهي الآن تسير في سياستها المادية تحت تأثير غرورها بأنها حائزة أسرار ذلك الطارق العنيف الذي جعل اليابان تركع على قدميها إثر ضربتين اثنتين من ذلك الطارق .

قيمة رسالتها الإنسانية قد آثر فيها زيادة مقدرتها المادية ، وقوتها الحاربة ، لأنها خطت خطوة واسعة في العلم لم يصحبها خطوة موازية في الروح التي تخلع القيم على الأشياء ، وإن رد القيمة الخلقية للأعمال والأشياء رسالة محتاج إلى معجزات من الجهاد الموصول والإخلاص الإنساني والاستمداد من رب الحياة الذي جعل في الإنسانية مروءة تجعلها تدرك رشد أمرها وتكيف حياتها حسب مصلحتها ، وتخرج من الأهوال وفيها بقايا حياة تسمح بتجديد شملتها ، وامتداد وجودها في كل الظروف والأحوال .

وأعظم أسلحة الجهاد في هذا السبيل هو التفاؤل والتأمل ، وعدم اليأس من روح الله ؛ مع اليقين الثابت بأنه ما خلقنا إلا للخير ولو بدا في ثياب الشر لدى أنظارنا القصيرة .

عبد المصطفى